المحاضرة الثانية

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب :

كان فتح الغرب الإسلامي بشكل عام ضمن حركة الفتوحات التي بدأتها دولة الإسلام منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، غير أن حواضر المغرب لم تكن مسرحا لهذه الفتوحات إلا في العهد الراشدي ومن بعده الأموي.

أسباب الفتح والعوامل المساعدة عليه :

1 - نشر الإسلام وهو الهدف الأسمى وغاية الفاتحين الأولى ، كون الرسالة الإسلامية رسالة عالمية لا تختص بجغرافية بعينها .

2 - تامين الحدود الغربية للدولة الإسلامية وهو ما يعني التوسع نحو بلاد المغرب ومن بعدها الأندلس .

3 - تذمر الساكنة المغربية من الظلم والقهر المسلط عليهم من قبل الإدارة البيزنطية الحاكمة .

4 - ضعف الحكم البيزنطي وعدم تقبله من طرف الأهالي مما جعلهم في تمرد مستدام ضده .

5 - انسجام غالبية المغاربة مع الفاتحين وقبولهم بالمشروع الإسلامي وهو ما جعلهم يتحولون إلى جنود فاتحين بل ومحاربين من اجل هذا المشروع .[1]

غير أن الملاحظ أن هذه الفتوحات لم تكن باليسيرة بل طال عمرها واستغرقت جهدا وإمكانيات وتضحيات جِسام فما هي عراقيل الفتوحات وأسباب طول عمرها ؟

أسباب طول فترة الفتح :

1 - التحصينات البيزنطية التي أقاموها أو تلك التي ورثوها عن أسلافهم الرومان وقاموا باستثمارها وترقيتها لتكون أكثر تحصينا .

---

[1] عبد العزيز شهبي : المرجع السابق ، ص 9 .

2 - المقاومة المغربية والبيزنطية الشرسة التي أعاقت حركة الفتوحات .

3 - المشاكل السياسية التي عرفتها الخلافة الإسلامية في المشرق منها تلك المتعلقة بخلافة علي بن أبي طالب وما نجم عنها من خلافات بينه وبين الصحابة ومنها ثورة ابن الزبير أو مشكلة كربلاء .

4 - تأخر إقامة قاعدة إسلامية تكون مرتكزا لتوسيع النفوذ الإسلامي في بقية المناطق المغربية .[2]

5 - جهل الفاتحين بالطبيعة التضاريسية للمنطقة .

مراحل الفتح :

يمكن التمييز بين مرحلتين :

أ – مرحلة الاستطلاع والاستكشاف :

* شرع عمرو بن العاص في التوسع نحو برقة فافتتحها سنة 21 هـ وصالح أهلها على جزية ، ليتوجه بعدها بجيشين احدها يسير بمحاذاة الساحل للاستيلاء على طرابلس والثاني يتوغل إلى الداخل حيث افتتح عقبة فزان ومن بعدها زويلة ، أما عمرو بن العاص فاستولى على سرت ثم لبدة حتى أدرك طرابلس وفتحها سنة 22 هـ ، ثم افتتحت ودان وسبرت سنة 23 هـ [3] وعن ذلك يقول ابن عذاري في البيان المغرب ((وفي سنة 22 هـ بعدها افتتح بلاد طرابلس ، وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يخبره بما أفاء الله عليه من النصر والفتح وان ليس أمامه إلا بلاد افريقية وملوكها كثير وأهلها في عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل فأمره بالانصراف عنها)) [4] ، وبعدها استأذن

---

[2] عبد العزيز شهبي : المرجع السابق ، ص 10 .

[3] عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج 2 ، ص ص 141 – 149 .

[4] ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق : ليفي بروفنسال و ج. كولان ، ط 3 ، دار الثقافة ، بيروت ، 1983 . ج1 ، ص 8 .

عمرو بن العاص الخليفة عمرو بن الخطاب في فتح افريقية ، فرض الخليفة ذلك فعاد إلى مصر [5] .

في نهاية23 هـ بويع عثمان بن عفان رضي الله عنه بالخلافة (ليلة بقيت من ذي الحجة) [6] وقيل في مستهل سنة 24 هـ [7] ، وكانت الفتوحات في عهده بلغت مبلغا غير مسبوق ، ومن المناطق التي كانت مسرحا لهذه الفتوحات بلاد المغرب التي كان يستقل بها جرجيريوس والذي نقل عاصمته إلى الداخل التونسي بالضبط إلى سبيطلة سنة 24 هـ وحصّن بعض المدن مثل سفاقس قابس وقفصة ، وقد توجه جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن أبي سرح في عشرين ألفا من المقاتلين ، فلقيهم جرجيريوس [8] في مائة وعشرين ألفا مقاتل والتقى الفريقان قرب سبيطلة حيث انهزم الروم وقتل قائدهم جرجير وغنم المسلمون [9] غير أن ابن أبي السّرح تفاوض مع البربر الذين منحوه مبلغا من المال مقابل الرجوع إلى قواعده الخلفية (مصر) [10] وبذلك لم يستثمر هذا النجاح أو يسترسل في الفتوحات [11]، لتتوقف بعده الفتوحات بسبب الفتنة الواقعة في المشرق .

وعن تفاصيل فتح سبيطلة يقول الطبري : ((وفي هذه السنة - أي 27 هـ - عُزل عمر بن العاص عن خراج مصر ، واستعمل عليه عبد الله بن سعد بن أبي السرح وكان أخا عثمان من الرضاعة ... ثم إن عبد الله بن سعد لما ولي

---

[5] نفسه .

[6] الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 2 ، دار المعارف ، القاهرة ، د . ت ، ج 4 ، ص 242 ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ط 3 ، مكتبة المعارف ، بيروت ، 1990، ج 7 ، ص 147 .

[7] ابن الكردبوس : الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، تحقيق ، صالح بن عبد الله الغامدي ، ط 1، إصدارات وزارة التعليم العالي ، المملكة العربية السعودية ، 2008 ، ص 401 ؛ ابن كثير: المصدر السابق ، ج 7 ، ص 147 ؛ الطبري ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص 242 .

[8] ويسميه العرب جرجير .

[9] عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج 2 ، ص ص 154 – 159 .

[10] ابن عذاري المراكشي: المصدر السابق ، ج1 ، ص ص 12 ، 14 .

[11] عبد العزيز شهبي : المرجع السابق ، ص 15 .

أرسل إلى عثمان في غزو افريقية والاستكثار من الجموع عليها وفتحها ... فسار بهم عبد الله بن سعد إلى افريقية ، فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين وكانوا بها وساروا إلى طرابلس ، فنهبوا من عندها من الروم ، وسار نحو افريقية ، وبث السرايا في كل ناحية ، وكان ملكهم اسمه جرجير ، ومُلكه من طرابلس إلى طنجة ...

فلما بلغه خبر المسلمين ، تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس ، والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سبيطلة يوم وليلة ، ... وأقاموا هناك يقتتلون كل يوم ، وراسله عبد الله بن سعد يدعوه إلى الإسلام أو الجزية ، فامتنع منهما وتكبر عن قبول احدهما ، وانقطع خبر المسلمين عن عثمان ، فسير عبد الله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم فسار مُجِدّا ووصل إليهم وأقام معهم ، ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين ... ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر عاد كل فريق إلى خيامه ، وشهد القتال من الغد فلم ير ابن أبي السّرح معهم فسأل عنه فقيل انه سمع منادي جرجير يقول : "من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي" ، وهو يخاف ، فحضر عنده وقال له : تأمر مناديا ينادي : " من أتاني برأس جرجير نفّلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده ففعل ذلك فصار جرجير يخاف اشد من عبد الله "

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد : إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة ... وقد رأيت أن نترك غدا جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملوا ، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ، ونقصدهم على غِرّة فلعل الله ينصرنا عليهم .

فاحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك ، فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه ، وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتلا شديدا ،

فلما أذن بالظهر هم الروم [12] بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألحّ عليهم بالقتال حتى اتبعهم ثم عاد عنهم هو المسلمون فكلّ من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعبا ، فعند ذلك اخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحا من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا ، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم وقُتل جرجير ، قتله ابن الزبير وانهزم الروم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأخذت ابنة الملك جرجير سبيّة ، ونازل عبد الله بن سعد المدينة فحصرها حتى فتحها ، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها ، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار)) [13] .

بعد استشهاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة 40 هـ [14] واستثار معاوية بن أبي سفيان بالملك سنة 41 هـ بعد أن تنازل له الحسن بن علي [15] ،

انطلقت الفتوحات من جديد فكانت حملة معاوية بن حديج على المغرب سنة 45 هـ ، حيث خرج من مصر على رأس جيش ضخم ، لغزو افريقية ، حتى وصل قرطاجنة وهزم البيزنطيين بقيادة نقفور عند أول اشتباك (في قمونية) وانسحب البزنطيون إلى سوسة وتحصنوا داخل أسوارها أما قوات معاوية ابن حديج فقد عسكرت عند مكان يعرف بالقرن (وقيل أن معاوية بن حديج هو أول من اختط القرن وحفر هناك الآبار) ، حيث سيّر جيشين احدهما بقيادة عبد الله بن الزبير نحو سوسة فافتتحا وفر البطريق نقفور وجيشه داخل البحر دونما قتال وتعقبهم ابن الزبير ففروا منهزمين ، والآخر بقيادة عبد الملك بن مروان حيث حاصر حصن جلولاء أياماً بعد أن التحق به ابن الزبير ، ليتمكنوا من دخولها وافتتاحها والغنيمة منها ، وهناك من المؤرخين من قال بأن ابن حديج هو من افتتح حصن

---

[12] ويعرفون بالبزنطيين .

[13] الطبري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص 482 – 484 .

[14] ابن كثير : المصدر السابق ، ج 7 ، ص 327 ؛ الطبري : المصدر السابق ، ج 5 ، ص 145 .

[15] ابن كثير : المصدر السابق ، ج 8 ، ص 17 .

جلولاء أمثال ابن عذاري وابن عبد الحكم والمالكي [16] .وبعد ذلك افتتح معاوية بن حديج بنزرت ثم وغزا صقلية وغنم منها سنة 46 هـ على رواية ابن عذاري [17] .

وعن تفاصيل فتوحات ابن معاوية بن حديج في افريقية يقول النويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب : ((ومضى ابن حديج حتى انتهى إلى افريقية وهي حرْب ، وقد صارت نارا ... وبعث ملك الروم بطريقا يقال له نِجفُور [18] في ثلاثين ألف مقاتل فنزل على ساحل البحر ... فبعث ابن حديج إليه خيلاً ، فقاتلوه فانهزم واقلع في البحر ، وقاتل معاوية أهل جلولاء على باب المدينة ، فكان يقاتلهم صدر النهار ، فإذا مال الفيئ [19] انصرف إلى معسكره بالقرن ، فقاتلهم ذات يوم فلما انصرف نسي عبد الملك بن مروان قوسا له معلقة بشجرة ، فانصرف ليأخذها ، وإذا جانب المدينة قد إنهدم ، فصاح في اثر الناس فرجعوا ، وكانت بينهم حرب شديدة وقتال عظيم حتى دخلوا المدينة عنوة ، واحتووا على جميع ما فيها ، وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية ، وقيل : بل كان معاوية بن حديج مقيما بالقرن وبعث عبد الملك بن مروان إلى جلولاء في ألف فارس فحاصرها أياما فلم يظفر بها ، وانصرف الناس منكسرين فلم يسر إلا يسيرا حتى رأى في ساقه الناس غبارا كثيرا ، فظنوا أن العدو قد اتبعهم ، فرجعوا فإذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها من جهة واحدة ، فانصرف المسلمون إليها فقتلوا من فيها وغنموا وسبوا ، وانصرف عبد الملك إلى معاوية وهو معسكر بالقرن ينتظره ، فلما أتاه بالغنائم اختلفوا فيها فقال عبد الملك : " هي لأصحابي خاصة " وقال ابن حديج : " بل لجماعة المسلمين " ، وكتب إلى معاوية بن أبي سفيان فعاد جوابه : " العسكر ردءُ [20] السرية ، فاقسم بين الناس جميعهم " فوقع سهم الفارس ثلاثمائة دينار)) [21]

---

[16] عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج 2 ، ص ص 181 – 184 .

[17] ابن عذاري المراكشي: المصدر السابق ، ج1 ، ص 18 .

[18] ويعرف كذلك باسم نقفور .

[19] المقصود به الظل .

[20] بمعنى عيون .

[21] النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق : علي بوملحم ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2004 ، ج 24 ، ص ص 10 – 11.

ب – مرحلة الفتح المنظم والاستقرار:

بعد تعيين عقبة بن نافع أقدم على تأسيس القيروان سنة 50 هـ ، [22] وكان اختيار عقبة لموضع بناء القيروان له مبرراته فهو مكان بعيد عن البحر متوغل في الداخل بعيد عن أي هجوم بيزنطي بحري محتمل ، ويعطي للمسلمين أريحية في التصدي لأي غارة مفاجئة ، ناهيك عن قرب هذا الموقع الجديد (القيروان) من السبخة لتتمكن الماشية من الرعي بسهولة [23] ، وكانت مدينة القيروان حربية محصنة بها مسجد ودار للإمارة ، لتستقطب البربر والفاتحين ثم تحولت إلى مركز عسكري لإدارة بقية الغزوات نحو بلاد المغرب .

لم تدم ولاية عقبة طويلا إذ تم تنحيته سنة 55 هـ [24] واستخلفه أبو المهاجر الدينار على رأس ولاية المغرب (وقيل بأنه بنى مدينة جديدة بمحاذاة القيروان)، وارتكزت سياسته على أسلوبي الملاينة والسيف ، فقد غزا أبو المهاجر الدينار قبيلة أوربة وأحلافها من البرانس بالمغرب الأوسط ووصل بفتوحاته حتى إلى تلمسان ثم صالَحَ كُسيلة الأوربي وأحسن إليه حتى اعتنق الإسلام واتبعه قومه ، وبذلك كسر التحالف بين الأوربيين (قبيلة أوربة) والبيزنطيين ، ثم رجع إلى قواعده الخلفية وغزا قرطاجنة وفتح ميلة ثم عُزل بعد ذلك سنة 61 هـ .[25]

بعد عزل أبي المهاجر استخلف الأمويون عقبة بن نافع مرة ثانية سنة 62 هـ فقدم إلى القيروان ومعه جيوشه لفتح ما تبقى من المغرب ، وكان في قلبه شيء تجاه أبي المهاجر فقبض عليه رفقة كسيلة وقيدهما ، فتزعزعت مكانة كسيلة وسط قومه وتهاوت قيمته ، وقام عقبة بتجديد بناء القيروان ورمم ما يمكن ترميمه [26] .

وقد نقل لنا الرقيق القيرواني بعض أخبار ولاية عقبة عقبة بقوله :

---

[22] نفس المصدر ص 11 .

[23] ابن عذاري المراكشي: المصدر السابق ، ج1 ، ص 19 .

[24] عبد العزيز شهبي : المرجع السابق ، ص 17 .

[25] عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج 2 ، ص ص 213 – 216.

[26] نفس المرجع ، ص ص 219 – 220 .

((رحّل عقبة من الشام ، ولما مر على مسلمة (والي مصر آنذاك) بمصر اعتذر إليه من فعل أبى المهاجر ، وأقسم بالله لقد خالف رأيه فيما صنع ، وأنه وصّاه به ، وأمره بتقوى الله وحسن السيرة ، وأن يعزل عقبة أحسن عزل ، فإن أهل بلده يحسنون القول فيه ، فخالفنى وأساء عزلك ، فقبل منه عقبة ، ومضى سريعا لحنقه على أبى المهاجر ، حتى قدم إفريقية ، فأوثق أبا المهاجر في الحديد ، وأمر بخراب مدينته ، وردّ الناس إلى القيروان ، وركب في وجوه العساكر من التّابعين والعبّاد ، فدار بهم حول مدينة القيروان وهو يدعو لها ويقول : يا رب املأها فقها وعلما ، وأعمرها بالمطيعين والعابدين ، واجعلها عزّا لدينك ، وذلّا لمن كفر بك ، وأعز بها الإسلام ، وامنعها من جبابرة الأرض ثم عزم عقبة على الغزو في سبيل الله ، وترك بها جندا من المسلمين ، واستخلف عليهم زهير بن قيس))[27]

توغل عقبة بن نافع بجيوشه غربا آخذا معه أبا المهاجر أسيرا مكبلا أما كسيلة فقد افلت من محبسه ليُكوِّن جيشا من أتباعه ويقتنص الفرصة للهجوم على عقبة ، [28] وكان خط سير جيوش عقبة على باغاية (الأوراس) ثم الزاب الصحراوي فتاهرت [29] ليخطب بعدها على جنده : ((يا معشر المسلمين ، إنّ خياركم وأشرافكم السابقون منكم الذين رضي الله عنهم ، بايعهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيعة الرضوان على قتال من كفر بالله يوم القيامة فبيعوا أنفسكم من رب العالمين ، فإنكم داخلون في تلك البيعة لكم وعليكم ما عليهم ، وأنتم ما وطئتم هذه البلاد إلّا طلبا لرضاه وغضبا أن يعبد شيء سواه ، فأبشروا فكلّما كثر بشركم كان أخزى لهم وأعز لدينكم وربّكم ليس يسلمكم ، فألقوه بقلوب صادقة ، جعلكم الله أولى بأسه الذي لا يردّ عن القوم المجرمين)) [30]

---

[27] الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ، تحقيق : محمد زينهم محمد عزب ط 1 ، دار الفرجاني ، القاهرة ، 1994 ، ص 41 .

[28] المالكي : رياض النفوس (في طبقات علماء القيروان افريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم) ، تحقيق : بشير البكوش ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1983 ، ج 1 ، ص 34.

[29] الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص ص 42 – 43 .

[30] نفس المصدر ، ص 43 .

بعدها وصل إلى طنجة التي عقد صلحا مع حاكمها يوليان وقد دلّه على عورات البربر ومسالكهم وواصل عقبة بن نافع التوغل حتى وصل السوس فاتحا العديد من مناطقها مثل نفيس وتارودانت ووادي سوس وخضعت لسلطانه قبائل المنطقة ، وبعد أن وصلت جيوش عقبة إلى المحيط الأطلسي قفل راجعا .

استجمع كسيلة قواه (خمسين ألفاً من المقاتلين) وترصد عقبة ووقع القتال في موقعة تهودة سنة 63 هـ ، وقد اختار أبو المهاجر البقاء مع عقبه للقتال معه بعد أن أرسله عقبة مبعدا إيّاه عن قتال البربر والروم لكن أبا المهاجر رفض وبقي رفقة عقبة ودار القتال حتى استشهد عقبة وأبو المهاجر وكثير من المسلمين وزحف كسيلة على القيروان .[31]

وعن استشهاد عقبة بن نافع يقول ابن خلدون : ((فلما قفل عن غزاته وانتهى إلى طبنة صرف العساكر إلى القيروان أفواجاً ثقة بما دوخ من البلاد، وأذل من البربر حتى بقي القليل (أي القليل من الناس) وسار إلى تهودة أو بادس لينزل بها الحامية. فلما نظر إليه الفرنجة طمعوا فيه وراسلوا كسيلة بن لزم ودلوه على الفرصة فيه فانتهزها، وراسل بني عمه ومن تبعهم من البربر، واتبعوا عقبة وأصحابه رضي الله عنه حتى إذا غشوه بتهودة ترجّل القوم وكسروا أجفان سيوفهم، ونزل الصبر واستلحم عقبة وأصحابه رضي الله عنهم ولم يفلت منهم أحد، وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في مصرع واحد، وفيهم أبو المهاجر كان أصحبه في اعتقاله فأبلى رضي الله عنه في ذلك اليوم البلاء الحسن وأجداث الصحابة رضي الله عنهم أولئك الشهداء عقبة وأصحابه بمكانهم ذلك من أرض الزاب لهذا العهد . وقد جعل على قبر أسنمة ثم جصّص واتخذ عليه مسجد عرف باسمه وهو في عدد المزارات ومظان البركة، بل هو أشرف مزور من الأجداث في بقاع

[31] عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج 2 ، ص 123 وما بعدها .

الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مدّ أحدّهم ولا نصيفه))[32]

سادت حالة من الفلتان الأمني مدينة القيروان وعسكر زهير بن قيس البلوي في برقة ينتظر الدعم الأموي الذي وصله لاحقا وخرج زهير إلى افريقية سنة 69 هـ وقاتل كسيلة قرب القيروان (مكان يسمى ممس) ولقي كسيلة مصرعه وفرت جيوشه حتى وادي ملوية ، ثم رجع زهير وجيوشه إلى القيروان ونظم أمورها واستخلف عليها كثيرا من أصحابه بينما رجع هو إلى برقة واستشهد هناك [33] فاضطرب الوضع من جديد وافترق أمر البربر ، وقد نقل لنا الرقيق القيرواني صورة حية عن مجريات المعركة الواقعة بين زهير بن قيس وكسيلة بقوله :

((حشد له وجوه الرّجال من العرب ، وبعث إليه الأموال وتسرّع الناس معه ، ووفدت عليه الجنود ، أقبل في عسكر عظيم ، يريد إفريقية ، فلمّا دنا من مدينة القيروان ، وذلك في سنة سبع وستين وبلغ كسيلة بن ليوم الأوربى قدوم زهير عليه .. لا نهاية له ، وكان كسيلة في خلق عظيم من البربر والروم ، دعا أشرافهم وأكابرهم فشاورهم وقال لهم : إني أردت أن أرحل إلى ممس (من قرى المغرب) فأنزلها ، فإن هذه المدينة فيها خلق عظيم من المسلمين ولهم علينا عهد ، فلا نغدر بهم ونحن نخاف إذا التحم القتال أن يثبوا علينا ، ولكن ننزل ممس على ماء كثير يحمل عسكرنا ، فإنّ معنا خلقا عظيما فإن هزمناهم دخلنا معهم إلى طرابلس وقطعنا دابرهم من الدنيا ؛ تكون لنا إفريقية دارا إلى آخر الدهر ، وإن هزمونا كان الجبل منا قريبا الشعراء فنرجو ألّا نهلك ولا يفقد منا إلّا قليل فوافقوه فرحل إلى ممس فنزلها وبلغ ذلك زهير فلم يدخل القيروان ونزل على باب سالم وأقام ثلاثة أيام حتى استراح وأراح من معه وزحف في اليوم الرابع ، ووقف على كسيلة وعسكره آخر النهار فأمر الناس بالنزول ، فنزلوا وبات الناس على مصافّهم ، ووقفت خيول

---

[32] عبد الرحمن ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون (المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر) ، مراجعة : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، 2000 ، ج 6 ، ص ص 193 – 194 .

[33] عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج 2 ، ص 144 وما بعدها .

القوم بعضهم إلى بعض طول الليل فلما أصبح صلى مغلّسا ثم زحف إليه. وأقبل كسيلة ومن معه والتحموا في القتال ونزل الصّبر وكثر القتل في الفريقين ، حتى يئس الناس من الحياة فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة ، وقتل بممس ولم يجاوزها ومضى النّاس في طلب الروم والبربر ، فلحقوا كثيرا منهم بمزرعة «ملمجنة» وألحوا فيهم وجدّوا في طلبهم ، حتى سقوا خيلهم من الواد ي المعروف بملوّية من المغرب ، ففي تلك الواقعة هلك رجال الرّوم والمشركين من البربر وفرسانهم وأشرافهم)) [34]

اختار الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان القائد حسان بن النعمان الذي قدم إلى افريقية [35] ، وشرع في حملته العسكرية التي كانت سنة 73 هـ على رواية ابن الحكم وفي 74 هـ على رواية ابن الأثير [36]، ونزل بضواحي قرطاجنة وهزم بقايا الروم هناك ، ثم حاصرها حتى افتتحها ثم خرّبها حتى لا تُشكل خطرا على الفاتحين ، ثم انتصر حسان بن النعمان مرة أخرى على جموع البربر والروم في سطفورة (ضواحي تونس) [37].

عسْكر حسان بن النعمان بالقيروان بعض الوقت ثم توجه لقتال البربر الملتفين حول زعيمتهم الكاهنة (داهية بنت ماتية بن تيغان) ملكة جبل أوراس التي تمتعت بهيبة وسطوة وسط قومها ، فلما سمعت بقدوم جيوش المسلمين بقيادة حسان بن النعمان إلى باغاية خرّبتها فنزل عند مسكيانة واقتتل الفريقان وانهزم حسان سنة 75 هـ على الأرجح ، [38] فتراجعت جيوش المسلمين القهقرة حتى استقروا ببرقة ، وقد ظنت الكاهنة أن المسلمين جاؤوا للغزو والنهب فعادت إلى الأوراس وخربت العمران والمزارع لثني المسلمين عن الرجوع مرة أخرى ، ولم تكن

---

[34] الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص ص 44 – 45 .

[35] عن تفاصيل استشهاد زهير بن قيس البلوي انظر: ابن عذاري المراكشي : المصدر السابق ، ج1 ، ص 33 .

[36] ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، مراجعة : محمد يوسف الدقاق ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1987 ، ج 4 ، ص 135 .

[37] عبد العزيز سالم : المرجع السابق ،ج 2 ، ص 243.

[38] ذكر ابن خلدون سنة 34 للهجرة .عبد الرحمن ابن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 143 .

تدر الكاهنة أن ما أقدمت عليه من تخريب سيجلب لها مزيدا من التذمر وسط الروم والبربر ، فآثروا الالتحاق بالمسلمين نِكاية في الكاهنة .

في ذات الوقت أغار البيزنطيون على قرطاجنة وقتلوا من بها من المسلمين [39] ، أما جيوش حسان بن النعمان المرابطة في برقة فقد تعززت بإمدادات جديدة ناهيك عن المنشقين عن الكاهنة من الروم والبربر ، فزحف المسمون نحو افريقية وتحصّنت الكاهنة بالأوراس وطلبت من خالد بن يزيد الذي تبنته أن يأخذ الأمان لولديها عند حسان وأوصت أتباعها بالدخول في الإسلام ، بينما آثرت الكاهنة المقاومة والموت على ملتها ، ودارت معركة في بئر العاتر سنة 82 هـ حيث قُتلت الكاهنة واندثر جيشها ودانت هذه المناطق للإسلام [40] .

وعن مصرع الكاهنة يورد ابن عذاري المراكشي قوله : ((ثم إن حسان توافت عليه فرسان العرب ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك فدعا حسان عند ذلك برجل يشق به وبعثه إلى خالد بن يزيد بكتاب. فقراه وكتب في ظهره " أن البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأى عندهم فأطوِ المراحل وجدّ في السير " وجعل الكتاب في خبزة وجعلها زاداً للرجل ووجهه بها إلى الأمير حسان فلم يغب عن خالد بن زيد إلا يسيراً حتى خرجت الكاهنة نا شرة شعرها تضرب صدرها وتقول : " يا ويلكم يا معشر البربر ذهب ملككم فيما يأكله الناس " فافترقوا يميناً وشمالاً يطلبون الرجل فسرته الله تعالى حتى وصل حساناً فكسر الخبزة وقرأ الكتاب الذي كتب إليه خالد فوجده قد أفسدته النار فقال له حسان: " ارجع إليه " فقال الرجل : " إن المرأة كاهنة لا يخفى عليها شيء من هذا " فرحل حسان بجنوده إليه وبلغ الكاهنة خبره ، فرحلت من جبل أوراس في خلق عظيم ورحل إليها حسان فلما كان في الليل قالت لابنيها: " إني مقتولة " وأعلمتهم أن رأسها مقطوع موضوعاً بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعث حساناً فقال لها خالد: " فارحلي بنا وخلي له عن البلاد فامتنعت ورأته عاراً لقومها فقال لها خالد وأولادها : فما نحن صانعون بعدك؟ فقالت : أما أنت يا خالد فستدرك ملكاً عظيماً عند الملك الأعظم ، وأما أولادي فيدركون

---

[39] عبد العزيز سالم : المرجع السابق ،ج 2 ، ص ص 244 – 245 .

[40] عبد العزيز شهبي : المرجع السابق ، ص 22 .

سلطاناً مع هذا الرجل الذي يقتلني ويعقدون للبربر غرائم ، ثم قالت: " اركبوا واستأمنوا إليه " فركب خالد وأولادها في الليل وتوجهوا إلى حسان فأخبرها خالد بخبرها وإنها علمت قتلها، وقد وجهت إليك بأولادها فوكل بهما من يحفظهما وقدّم خالد على أعنّة الخيل وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها فقالت : انظروا ما دهمكم فإني مقتولة ، ثم التحم القتال واشتد الحرب والنزال فانهزمت الكاهنة واتبعها حسان حتى قتلها))[41]

وعن انخراط البربر في الفتوحات بما فيهم أولاد الكاهنة يقول ابن عذاري : ((وكان مع حسان جماعة من البربر استأمنوا إليه فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفا يجاهدون مع العرب فأجابوه وأسلموا على يديه فعقد لولدي الكاهنة لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر وانصرف حسان إلى مدينة القيروان بعد ما حسن إسلام البربر وطاعتهم وذلك في شهر رمضان سنة 83 (للهجرة))).[42]

وتوجه حسان إلى قرطاجنة وطهّرها من فلول البيزنطيين الذين فروا دون مقاومة .

شرع حسان بن النعمان في بناء مدينة تونس المشرفة على البحر ثم بنى بها مسجدا جامعا ودارا للإمارة وثكنات للجند ودوّن الدواوين ونظم الخراج وأقام بها دار صناعة للسفن فصارت قاعدة بحرية بامتياز ، كما علم البربر الإسلام وسماحته ونشر العربية فاقبل البربر على الإسلام .[43] وعن ذلك يقول ابن عذاري : ((وفي هذه السنة استقامت بلاد أفريقية لحسان بن النعمان فدون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم أفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية. وأقام حسان بعد قتل الكاهنة لا يغزو أحداً ولا ينازعه أحداً ثم عزله عبد العزيز بن مروان الوالي على مصر))[44]

---

[41] ابن عذاري : المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص 37 – 38 .

[42] نفس المصدر ، ج 1 ، ص 38 .

[43] المالكي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص 56 – 57 .

[44] ابن عذاري : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 38 .

استخلف الأمويون موسى بن النصير على المغرب مكان حسان أواخر سنة 85 هـ ووصل الوالي الجديد إلى القيروان سنة 86 هـ فزاوج بين سياستي اللين والشدة ، وفتح أجزاء من تونس وغنم فيها وسبى ثم توجه بفتوحاته وتوغل نحو المغرب الأقصى ، ليرسل فرق جيشه في اتجاهات عديدة في الداخل والساحل حيث انتصروا وغنموا وسبوا ودانت للمسلمين مناطق المغرب ، كما اخضعوا بالسيف قبائل هوارة وزناتة وصنهاجة وغنموا منهم وصالحوا كتامة ، ووصل موسى بن النصير بفتوحاته بلاد السوس لتُفتح بلاد المغرب عدا مدينة سبتة لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من قبل القوط [45] ، وهكذا ما إن حلت سنة 90 هـ حتى دانت بلاد المغرب للدولة الإسلامية ، ثم عمد موسى بن النصير إلى نشر الإسلام بين البربر وأوكل إليهم من يعلمهم دينهم الجديد وانشأ المساجد [46] . وعن فتوحات موسى بن النصير يقول النويري : ((فسار موسى حتى قدم افريقية وعزل عنها صالحا خليفة حسان بها ، فبلغه ان باطراف افريقية قوما خارجين عن الطاعة فوجه إليهم ابنه عبد الله فقاتلهم وظفر بهم. وأتاه بمائة ألف رأس من سبيهم .

ثم وجّه ولده مروان إلى جهة أخرى، فأتاه بمائة ألف رأس. ثم توجه هو بنفسه إلى جهة أخرى فأتى بمائة ألف رأس. قال الليث بن سعد: " فبلغ الخمس يومئذ ستين ألف رأس ولم يسمع بمثل هذا فيالإسلام " ثم خرج غازيا إلى طنجة يريد من بقى من البربر فهربوا منه فاتبعهم يقتل فيهم حتى بلغ السوس الأدنى لا يدافعه أحد .فاستأمن البربر إليه وأطاعوه. فقبل طاعتهم وولى عليهم واليا .

ثم استعمل على طنجة وبلادها مولاه طارق بن زياد. وتركه بها ف ي تسعة عشر ألف فارس من البربر وطائفة يسيرة من العرب لتعلّم البربر القرآن وفرائض الإسلام . ورجع إلى إفريقية فمر بقلعه مجّانة (بينها وبين القيروان خمس مراحل) فتحصن

---

[45] عن ولاية موسى بن نصير وفتوحاته انظر : ابن عذاري المراكشي: المصدر السابق ، ج 1 ، ص 39 وما بعدها .

[46] عبد العزيز شهبي : المرجع السابق ، ص 23.

أهلها منه فترك عليها من يحاصرها مع بُسر بن فلان « 2» ففتحها، فسميّت قلعة بُسر. ولم يبق بإفريقية من ينازعه من البربر ولا من الروم)) [47]

[47] النويري : المصدر السابق ، ج 24 ،ص 21 .